الإيمان وصناعة مسؤولية!

محاذير الراهن ومعالم رسائل النور

أ. عبد الرحمن طيبي(*)

من باب المساهمة في فعاليات المؤتمر العالمي التاسع الموسوم بـ "العلم والإيمان والأخلاق لأجل مستقبل أفضل للإنسانية.. مقاربة رسائل النور"، المزمع عقده شهر أكتوبر القادم، ومن خلال أحد محاور المؤتمر المتمثل في "دور الإيمان في تأهيل الشعور بالمسؤولية وتطوير محاسبة النفس" أقترح هذه المداخلة:

١. مقدمة:

إن غياب المسؤولية وإغفال البعد الإنساني في العلاقات العامة والخاصة ميزة للعصر الحالي وقبله عصر الأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي رحمه الله، ومع كثرة الحديث عن مطلق الإيمان في هذا الجو المكهرب بغلبة إيمان الغالب المستبد وأثره على مختلف شعاب الحياة وفق منظور الغالب دائما، لعوامل عديدة وفي سياقات متعددة فإن التساؤل مشروع عن تضمن الإيمان لمفاهيم المسؤولية من عدمه، وعن أية مسؤولية مطلوبة كأثر للإيمان في زمن الغربة والتوحش وأفول الإيمان على حد تعبير الأستاذ النورسي رحمه الله تعالى، وصولاته وجولاته من أجل إنقاذ الإيمان عبر رسائل النور؟.

٢. فرشة:

لا يختلف اثنان في تشخيص الوضع الذي يعيشه المسلمون اليوم بقدر اختلافهم في تحديد الأسباب وطرق العلاج، وإن كان الهمّ العام للذين يحملون همّ هذا الدين على اختلاف مشاربهم ومذاهبهم لا يخرج عن معاني ومغازي تساؤلات سابقة، لعل ممن أحسنوا صياغتها الأستاذ شكيب أرسلان "لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم؟"،

(*) جامعة الجزائر- رئيس تحرير يومية "الحوار"، abderta.benali@gmail.com

مع وجود الأمثلة الواقعية والنماذج الحية على تقدم المسلمين يوم حكّموا مبدأ ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلاَّ عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللهُ وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (البقرة: ١٤٣)

وقد اجتهد أعلام المسلمين مذ كثرت عليهم السكاكين بعد أن تصدر غيرهم الساحة، واستحكم الآخر من الأمر في البحث عن الأسباب.. أسباب التقهقر ومسببات العودة عنه من خلال جهود حثيثة وحرقة دائمة وإحساس بالمسؤولية الوقتية تجاه رسالة خاتمة، الأصل فيها وفي أهلها مدها بأمصال الاستمرار والحكامة باستشعار أبعاد مبادئها وأركان دعوتها ومرامي الخضوع والإخضاع لها تحت طائلة مسؤولية لا يخل فرد من المنتسبين إليها من نصيب منها التزاما وانفكاكا وتلك سمة من سمات العصر.

يقول مولانا بديع الزمان سعيد النورسي وهو يتأسف على تضعضع الأخوة الإيمانية بين المسلمين كنتيجة من نتائج غياب مسؤولية فاعلة للإيمان، ويصف المدنية الغربية المتغولة، بالإضافة إلى مشاهد أخرى أبدع الرجل في تشخيصها ونقلها سهلة سلسة إلى الباحثين عن الإيمان والمتشتتين مذاهب في إعادة تفعليه: "إن تنامي الأخوة بين المسلمين يُسرع في هزّ المدنية الحاضرة ويقرب دمارها، وستتبدل صورة المدنية الحاضرة، وسيقوض نظامها. وعندها تظهر المدنية الإسلامية، وسيكون المسلمون أول من يدخلونها بإرادتهم.

وان أردت الموازنة بين المدنية الشرعية والمدنية الحاضرة، فدقق النظر في أسس كلٍ منهما ثم انظر إلى آثارهما.

إن أسس المدنية الحاضرة سلبية، وهي أسس خمسة، تدور عليها رحاها.

فنقطة استنادها: القوة بدل الحق، وشأن القوة الاعتداء والتجاوز والتعرض، ومن هذا تنشأ الخيانة.

هدفها وقصدها: منفعة خسيسة بدل الفضيلة، وشأن المنفعة: التزاحم والتخاصم، ومن هذا تنشأ الجناية.

دستورها في الحياة: الجدال والخصام بدل التعاون، وشأن الخصام: التنازع والتدافع، ومن هذا تنشأ السفالة.

رابطتها الأساس بين الناس: العنصرية التي تنمو على حساب غيرها، وتتقوى بابتلاع الآخرين وشأن القومية السلبية والعنصرية: التصادم المريع، وهو المشاهد. ومن هذا ينشأ الدمار والهلاك.

وخامستها: هي أن خدمتها الجذابة، تشجيع الأهواء والنوازع، وتذليل العقبات أمامهما، وإشباع الشهوات والرغبات. وشأن الأهواء والنوازع دائماً: مسخ الإنسان، وتغيير سيرته، فتتغير بدورها الإنسانية وتمسخ مسخاً معنوياً.

إن معظم هؤلاء المدنيين، لو قلبتَ باطنهم على ظاهرهم، لرأيت في صورتهم سيرة القرد والثعلب والثعبان والدب والخنزير.

نعم! إن خيالك ليمس فراء تلك الحيوانات وجلودها.. وآثارهم تدل عليهم.

انه لا ميزان في الأرض غير ميزان الشريعة. إنها رحمة مهداة نزلت من سماء القرآن العظيم.

أما أسس مدنية القرآن الكريم، فهي ايجابية تدور سعادتها على خمسة أسس ايجابية.

نقطة استنادها: الحق بدل القوة، ومن شأن الحق دائماً: العدالة والتوازن. ومن هذا ينشأ السلام ويزول الشقاء.

وهدفها: الفضيلة بدل المنفعة، وشأن الفضيلة: المحبة والتقارب، ومن هذا تنشأ السعادة وتزول العداوة.

دستورها في الحياة: التعاون بدل الخصام والقتال، وشأن هذا الدستور: الاتحاد والتساند اللذان تحيا بهما الجماعات.

وخدمتها للمجتمع: بالهدى بدل الأهواء والنوازع، وشأن الهدى: الارتقاء بالإنسان ورفاهه إلى ما يليق به مع تنوير الروح ومدّها بما يلزم.

رابطتها بين المجموعات البشرية: رابطة الدين والانتساب الوطني وعلاقة الصنف والمهنة وإخوة الإيمان. وشأن هذه الرابطة: أخوة خالصة، وطرد العنصرية والقومية السلبية.

وبهذه المدنية يعم السلام الشامل، إذ هو في موقف الدفاع ضد أي عدوان خارجي.

والآن! ندرك لِمَ أعرض العالم الإسلامي عن المدنية الحاضرة، ولم يقبلها، ولم يدخل المسلمون فيها بإرادتهم.

إنها لا تنفعهم، بل تضرهم. لأنها كبّلتهم بالأغلال، بل صارت سماً زعافاً للإنسانية بدلاً من أن تكون لها ترياقاً شافياً؛ إذ ألقت ثمانين بالمائة من البشرية في شقاء، لتعيش عشرة بالمائة منها في سعادة مزيفة. أما العشرة الباقية فهم حيارى بين هؤلاء وهؤلاء.

وتتجمع الأرباح التجارية بأيدي أقلية ظالمة، بينما السعادة الحقة، هي في إسعاد الجميع، أو في الأقل إن تصبح مبعث نجاة الأكثرية.

والقرآن الكريم النازل رحمة للعالمين لا يقبل إلا طرازاً من المدنية التي تمنح السعادة للجميع أو الأكثرية، بينما المدنية الحاضرة قد أطلقت الأهواء والنوازع من عقالها، فالهوى حر طليق طلاقة البهائم، بل أصبح يستبد، والشهوة تتحكم، حتى جعلتا الحاجات غير الضرورية في حكم الضرورية. وهكذا مُحيت راحة البشرية؛ إذ كان الإنسان في البداوة محتاجاً إلى أشياء أربعة، بينما، أفقرته المدنية الحاضرة الآن وجعلته في حاجة إلى مائة حاجة وحاجة. حتى لم يعد السعي الحلال كافياً لسد النفقات، فدفعت المدنية البشرية إلى ممارسة الخداع والانغماس في الحرام. ومن هنا فسدت أسس الأخلاق، إذ أحاطت المجتمع والبشرية بهالة من الهيبة ووضعت في يدها ثروة الناس فأصبح الفرد فقيراً وفاقداً للأخلاق"[1].

وقد جاء هذا النص في تقدير أي ملاحظ بمنزلة مفتاح مفاتيح الموضوع إشكالا ووصفا وتحليلا وحلولا، وعليه سيكون العمدة في هذه الورقة، ليس من باب الاستنقاص من موروث الرجل بقدر ما هو عينة من العينات الكثيرة وأنموذج جمع فيه شتات الورقة والتي لا تخرج عن ما جاء في الأثر "حولها ندندن"[2].

---

(١) النورسي، بديع الزمان سعيد، كليات رسائل النور، الكلمات، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، ط٠٣، شركة سوزلر للنشر، القاهرة، مصر، ١٤٢١هـ-٢٠٠٠م، ص ٨٥٥-٨٥٦

(٢) أصل الأثر ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لرجل ما تقول في الصلاة؟ قال: أتشهد ثم أسأل الله الجنة وأعوذ به من النار، أما والله ما أحسن دندنتك ولا دندنة معاذ، فقال – أي الرسول صلى الله عليه وسلم-: "حولها ندندن" أخرجه أبو داوود عن بعض الصحابة رقم ٧٩٢، وأخرجه ابن ماجه رقم ٩١٠، وابن حبان رقم ٨٦٨.

٣. محاذير الراهن:

أ- أتباع رسالة خاتمة بين الالتزام والانفكاك:

لن نعدم حيلة ونحن نعيد قراءة ما كتبه مولانا بديع الزمان سعيد النورسي عن عصره الذي جند له علوم سعيد القديم وسعيد الجديد، خبرة القديم وخبرات الجديد، وهو يشخص عالمه الذي لا يختلف عن عالمنا اليوم إلا في الجزئيات التي لا تغير من المعطى العام الكثير، ويكفي النص السابق دلالة على ذلك، ليرفع راية "إنقاذ الإيمان" بإلحاح وإصرار شديدين "أيها التعساء! ماذا فعلت بكم، وما الذي أفعله بحقكم؟ إنني أسعى لإنقاذ إيمانكم وإبلاغكم السعادة الأبدية."[١]، في صدح واضح وجلي بتحمل التبعات ومسؤولية الإيمان،[٢] وهو يورد في نفس الوقت في أكثر من موقع الحالة التي وصل إليها المسلمون الذين أخذ داء الانفكاك من الالتزام طريقه إليهم كما يأخذ السرطان طريقه إلى الجسم المهلهل دون أن يصيب أمل الشفاء وبذرته في مقتل، وتلك سنة من سنن الله في خلقه ومنة منه لعباده الصالحين والمخلصين.

ب- تفريط في العلم وتفريط في العمل:

لقد أبان مولانا بديع الزمان سعيد النورسي وهو يصول ويجول من خلال كليات رسائل النور أن لكل عصر خصوصياته التي تفرضها تحدياته، وأن الأثر الغالب لكثير من المناهج في سبيل تحقيق المبتغى من الوجود الإنساني يعكس صلاحيته من عدمها، "إن هذا الزمان ليس زمان الطريقة الصوفية بل زمان إنقاذ الإيمان. ولله الحمد فإن رسائل النور قد أنجزت وما تزال تنجز هذه المهمة وفي أصعب الظروف. إن دائرة رسائل النور في هذا الزمان هي دائرة طلاب الإمام علي والحسن والحسين والشيخ الكيلاني رضوان الله عليهم أجمعين.."[٣]، لاسيما مع ترك التوكل مكانه للتواكل، وانتقل المسلم من الاعتزاز بالأنا إلى الغرق والإغراق في الآخر، ومن الاهتمام بالحياة كمظهر من مظاهر تجلي أسماء الله الحسنى وتوظيفها في التقرب من الله عز وجل وتحقيق العبودية له وتقريب البشر الآخرين إليه إلى الانسحاب من الحياة والاستقالة من تحمل المسؤولية، المسؤولية الفردية

---

(١) النورسي، كليات رسائل النور، المكتوبات، م.س، ص ٩٥، وانظر: الشعاعات، ص ٥٠١.

(٢) المسؤولية: "هي التبعة، تقول أنا بريء من مسؤولية هذا العمل، والمسؤول من الرجال هو المنوط به عمل تقع عليه تبعته..." جميل صليبا، المعجم الفلسفيّ، دار الكتاب اللبناني ج٢ ص ٣٦٩

(٣) النورسي، كليات رسائل النور، الملاحق، ملحق أميرداغ، م.س، ص ٢٦٣.

والمسؤولية الجماعية كمنتج آلي من منتجات الإيمان، والتي سببت أيضا تفشي الأمراض النفسية والعلل المعنوية، وفي هذا المقام يقول الأستاذ النورسي: "إخواني! ربما أموت قريباً. فإن لهذا العصر مرضاً داهماً. وهو الأنانية وحب النفس، واشتهاء قضاء حياة جميلة في ظل مباهج وزخارف المدنية الجذابة وأمثالها من الأمراض المزمنة. إن أول درس من دروس رسائل النور الذي تلقيته من القرآن الكريم، هو التخلي عن الأنانية وحب النفس. حتى يتم إنقاذ الإيمان بالتقلد بالإخلاص الحقيقي."[١]

ج- صراع الإيمان.. غالب ومغلوب:

لسان حال مولانا بديع الزمان سعيد النورسي ولسان مقاله مجمعان على أن الإيمان اليوم غالب ومغلوب، مع بعض الفذلكة، فإنه وإن ظهر للجميع قوة وحجة وغلبة إيمان القرآن إلا أن واقع المسلمين وتصرفاتهم جعلت منهم أسرى لإيمان غير إيمانهم الذي عهدوه وعاهدوه."أنظر النص العمدة السابق" إيمان الغالب الوقتي الراهن أو آنذاك على حد تعبير أستاذنا الدكتور عمار جيدل، فالإيمان وإن كان يحمل معنويا قوة وجوده وحجية في استمراره إلا أنه لحال أتباعه نصيب في رفعه أو التقليل من أثره في عالم يعج بمختلف أصناف الإيمان بما فيه اللاإيمان.

ولعل استعمال مولانا النورسي لمصطلح "الحقائق الإيمانية" على نحو مطرد إلزام بالتوقف عند الفرق والفارق بين الإيمان الحقيقي المورث للمسؤولية، وبين الإيمان المزيف بتمظهراته المختلفة[٢]، وتوظيفه لهذا المصطلح من التمييز والتميز، وكأنه في "سياق الحديث عن المحتوى المعرفي والروحي والتعميري للقرآن الكريم، فنجد في رسائله كل المواضيع الشرعية، فيعرض العقيدة، والعبادة والتربية الروحية ومتطلباته الاجتماعية، والأدبية والتعميرية... لهذا يلاحظ على هذا الاستعمال مسحة وظيفية، ومن ثم كان هذا الإطلاق أوسع... من استعمالات المتكلمين... كما أنه يجاوز استعمالات المتصوفة... وهو في ذات الوقت تجاوز اصطلاحات الفقهاء..."[٣]، فحتى ونحن نعيش عصرا يعج بشعارات التعاون والتعايش والحوار والتفاهم بين مختلف أصناف أتباع

(١) النورسي، كليات رسائل النور، سيرة ذاتية، م.س، ص ٤٧٤.

(٢) انظر على سبيل المثال: النورسي، كليات رسائل النور، الكلمات م.س ص ٧٥٩، و المكتوبات ص ٢٦-٢٧-٤١-٧٨-٨٢-٨٨... إلخ

(٣) جيدل عمار، بديع الزمان النورسي وإثبات الحقائق الإيمانية -المنهج والتطبيق-، ط ٠١، شركة نسل للطباعة والنشر والتوزيع، إسطنبول تركيا، ١٤٢٢-٢٠٠١، ص ٨٣-٨٤.

الإيمان لا نملك وفق منظور الأستاذ بديع الزمان غير الاعتماد على "إنقاذ الإيمان".. إيمان القرآن بطبيعة الحال للصمود في عصر غزاه ألف نوع ونوع من أنواع الإيمان، لأن مفاهيم التعاون والتعايش والحوار والمشترك لا يجد الصدق طريقا إليها والجميع يرى من عهد الأستاذ النورسي إلى يومنا هذا أن المنافحين والمروجين لهذه المفاهيم يكذب حالهم مقالهم، لأن المفاهيم السابقة في عرفهم المستتر وحتى الظاهر مرادفة للقمع والمصادرة وتغليب الشهوات والإقصاء والإفساد في الأرض، تحت يافطة "حق القوة لا قوة الحق"، إذ أن الشعارات السابقة وحملتها من غير المنتسبين إلى "إيمان القرآن" لا يترجمونها سلوكا إلا وهي مبطنة بمفاهيم القمع والاعتداء والظلم والقهر، ظلم الإنسان والطبيعة التي تعتبر في حد ذاتها مظهرا من مظاهر اكتساب الإيمان وتقويته وإقناع الغير من غير المدينين له والخاضعين لسلطانه به.

ولا يخفى على أحد أن مفهوم الإيمان القرآني الذي أسبغ بلبوسه على مولانا بديع الزمان سعيد النورسي أنتج لنا ميراثا وخبرة معرفية وثقافية كما أنتج المنتسبون إلى "إيمانات" أخرى إذا صح التعبير منتجا معرفيا وثقافيا وفكريا وسياسيا وفلسفيا وجد طريقه إلى التغلغل في دواليب الأنفس ومظاهر الحياة المختلفة في تدافع بين الفكرة والأخرى.

هذا المنتج المعرفي والثقافي المتنوع احتل مكانه في هذا العالم لضعف المسلمين وضعف إيمانهم بتحقيق مبتغياته وفق نماذج واقعية متاحة كان لها الأثر الطيب على العالم طيلة قرون من الزمن، يعني أن هذا الهرج والمرج والمنتج البشري الناتج عن مفاهيم مختلفة للإيمان عن الإيمان القرآني الذي استل مولانا بديع الزمان سعيد النورسي سيفه لإنقاذه من باب المجاهدة بنتاج مسؤولية عن الإيمان القرآني "أو المسؤولية بالتعريف" ومجابهة نتاج مسؤوليات متعددة لأنواع متعددة من الإيمان غير القرآني "سبيل الله وسبل الشيطان"، "إن أعظم خطر على المسلمين في هذا الزمان هو فساد القلوب وتزعزع الإيمان بضلال قادم من الفلسفة والعلوم. وإن العلاج الوحيد لإصلاح القلب وإنقاذ الإيمان إنما هو النور وإراءة النور. فلو عُمل بهراوة السياسة وصولجانها وأُحرز النصر، تدنى أولئك الكفار إلى درك المنافقين. والمنافق - كما هو معلوم - أشد خطراً من الكافر وأفسد منه. فصولجان السياسة إذاً لا يصلح القلب في مثل هذا الوقت، حيث يُنزل الكفر إلى أعماق القلب ويتستر هناك وينقلب نفاقاً."[1]

(١) النورسي، كليات رسائل النور، اللمعات، ص ١٥٨

د- الجرأة بغير علم:

ويتجلى هذا المفهوم على عيش المسلمين على أمجاد الماضي، والاعتقاد بأن الساعة متوقفة في لحظة زمنية كان فيها أصحاب المذاهب الفقهية والسلوكية والفلسفية والعلمية الإسلاميين أو بالأحرى المسلمين أصحاب الصدارة في هذا العالم، بالإضافة إلى بعد الأخلاف من المسلمين عن الحضارة وعمارة الأرض بالعلم والعمل، حتى ترى الكثيرين منهم يتجرؤون على العلم بما فيها العلوم الإنسانية دون امتلاك ناصيتها "فالجهل المريع الناشئ من الضلال، والتمرد المقيت المتولد من الزندقة، يحولان دون إدراكهم ماهية الأسباب"[1]، وهو تعبير صريح وصارخ عن عدم احترام المنازل والأطوار، وتقديم الجهل على العلم.

ويقول في موضع آخر: "إن القرآن الكريم يبين أن الإنسان مسؤول عن سيئاته مسؤولية كاملة. لأن الإنسان هو الذي أراد السيئات. ولما كانت السيئات من قبيل التخريبات، لذا يستطيع الإنسان أن يوقع دماراً هائلاً بسيئة واحدة، كإحراق بيت كامل بعود ثقاب، وبذلك يستحق إنزال عقاب عظيم به."[2]

هـ- التباس الذات بالقيمة:

وهي نتاج الجهل والاعتداد بالنفس وغلق أدوات الاستيعاب التي وضعها الله في هذا الإنسان المكرم، ليفصل بين المعرفة والذات العارفة، أو يروم التأصيل للمبادئ وخدمتها، وقد فصل فيها كثير من العلماء في جانب من الجوانب من خلال التفريق بين الدين والتدين، بين المقدس والفهوم أو الاجتهادات البشرية، أو بين الوحي وحركة الإنسان في العالم، أو بين المطلق والمقيد، وتلك صورة من صور الجهل وخيانة أمانة التكريم ومسؤولية الشهادة على الناس، يقول الأستاذ النورسي: "وهكذا، فـ "أنا" في وضعه هذا، المتلبس بالخيانة للأمانة، إنما هو في جهل مطبق بل هو أجهل الجهلاء، يتخبط في درك جهالة مركبة حتى لو علِمَ آلاف العلوم والفنون، ذلك لأن ما تتلقفه حواسُه وأفكارُه من أنوار المعرفة المبثوثة في رحاب الكون لا يجد في نفسه مادةً تصدّقه وتنوّره وتديمه، لذا تنطفئ كل تلك المعارف، وتغدو ظلاماً دامساً؛ اذ ينصبغ كل

(١) النورسي، كليات رسائل النور، الكلمات، م س، ص ١٩٩، وإن كان هذا النص في أصله وسياقاته يتحدث عن الأسباب والمسببات وعلاقتها بالقدرة الإلهية، إلا أن توظيفه في سياق هذا المعنى قد يخدم أصل الفكرة. وانظر: ص ٣٠٣ أيضا.

(٢) النورسي، كليات رسائل النور، الكلمات، م س، ص ٥٤٢

ما يرِد إليه بصبغة نفسه المظلمة القاتمة، حتى لو وردت حكمةٌ محضة باهرة فإنها تلبس في نفسه لبوس العبث المطلق؛ لأن لون "أنا" في هذه الحالة هو الشرك وتعطيل الخالق من صفاته الجليلة وإنكار وجوده تعالى. بل لو امتلأ الكون كله بآيات ساطعات ومصابيح هدىً فان النقطة المظلمة الموجودة في "أنا" تكسف جميع تلك الأنوار القادمة، وتحجبها عن الظهور."[١]

٤. فلسفة المسؤولية الفردية والجماعية من خلال "إنقاذ الإيمان":

لن نعدم حيلة في التقرير من خلال كلام الأستاذ بديع الزمان وآثاره من أن رسائل النور عبارة عن فهم قرآني "فهي تحظى بكونها مدار انكشاف لمراتب غير محدودة للإيمان ومصدر رقي في مدارجه السامية غير المتناهية"[٢]، ولهذا نفى الرجل عنها المذهبية الفقهية والسلوكية "رسائل النور ليست طريقة صوفية بل حقيقة، وهي نور مفاض من الآيات القرآنية ولم تستقي من علوم الشرق ولا من فنون الغرب، بل هي معجزة معنوية للقرآن الكريم خاص لهذا الزمان"[٣]، مما يجعل منها كتابا شاملا لتحقيق العبودية لله عز وجل كما مر سابقا، فمقاصدها ومراميها تدور وتحوم حول مقاصد ومرامي الوحي الخاتم، يقول النورسي: "ورغم أن رسائل النور نشرت الحقائق القرآنية بجهاد متواصل إلى الآفاق كافة، في هذا العصر العنيد الملحد، لم يستطع أحد أن يعارضها أو ينقدها، مما يثبت أن القرآن الكريم الذي هو رائدها ومنبعها، ومرجعها، وشمسها، إنما هو سماوي من كلام الله رب العالمين، وليس بكلام بشر"[٤]، وبالتالي مدارها على بيان حقيقة التكليف والمسؤولية بتوضيح علاقة الإنسان بالله وبالكون، كما أن الفكرة المركزية التي يدندن حولها النورسي وهي "إنقاذ الإيمان" تجل عظيم من تجليات الشعور بالمسؤولية وتحقيق آثارها في الواقع عبر رسائل النور.

أ- الإيمان.. مسؤولية والمسؤولية

من باب محاولة تبرير تنكير الـ "مسؤولية" وتعريفها، تجدر الإشارة إلى أنه في تعريفها من خلال هذه الورقة دلالة على معروفيتها أو بالأحرى على ارتباطها بالحقائق

---

(١) النورسي، كليات رسائل النور، الكلمات، م س، ص ٦٣٩

(٢) النورسي، كليات رسائل النور، الشعاعات، ص ٢٥٥

(٣) النورسي، كليات رسائل النور، ملحق قسطموني، ص ٢٠٢

(٤) النورسي، كليات رسائل النور، الكلمات، م س ص ٥١٧

الإيمانية كما عمل على ذلك الأستاذ النورسي من خلال رسائل النور، وتنكيرها استفزاز وحث على إنكارها باعتبارها متولدة من إيمان منكر بعيد عن الحقائق الإيمانية المرتبطة بالرسالة الخاتمة، وعليه نعود إلى النص الأول الذي اعتبر عمدة في هذه الورقة[١].

ب- مسؤولية الإيمان المزيف:

من نص الاستهلال للنورسي في هذه الورقة يمكن الوقوف على جملة معالم الـ "مسؤولية" المنكّرة في هذا الإيمان من خلال:

الاستناد إلى القوة: يفهم من الأستاذ النورسي أن نقطة استناد المنتج المعرفي ومسؤولية إيمان غير إيمان الرسالة الخاتمة هي القوة بدل الحق، في تأصيل واضح لسلوكات من قبيل الاعتداء والتجاوز والإقصاء والقمع، والتي بدورها تسهم في تفشي الخيانة والمداراة.

الهدف المنفعة: يستشف من رسائل النور أن الهدف المركزي من هذا الإيمان هو المنفعة الخسيسة بدل الفضيلة والأخلاق، والتي تولد تزاحما وتخاصما لغياب النزاهة والعدالة، والتي بدورها تفتح الباب واسعا أمام الجناية. "إعلم! أن النفس بسبب تكاسلها في وظيفتها، تريد أن لا يكون عليها رقيب فتحب التستر. فتلاحظ عدم المالك مكرراً، فتعتقد حريتها؛ فأولاً تتمنى، ثم تترجى، ثم تلاحظ، ثم تتصور، ثم تعتقد العدَم. ثم تمرُق من الدين!.. ولو استشعرت بما تحت الحرية والراحة وعدم المسؤولية من الأهوال المدهشة المحرقة واليُتم الحزين الأليم؛ لما مالتْ أدنى ميلٍ، بل لفرّتْ وتبرأت وتابت أو ماتت."[٢]

الدستور الجدل والخصام: يستنتج الأستاذ النورسي أن قانون هذه الـ "مسؤولية" المنكّرة هو الجدل والخصام بدل التعاون والذي يولد تنازعا وتدابرا وتشاحنا، مورثا السفالة والنذالة.

الرابطة العنصرية: في تسلسل منطقي يصل الأستاذ النورسي إلى أن كل ما سبق لا تلح معه غير رابطة العنصرية وعقدة التفوق والتمييز، مما ينتج عنها التصادم المفضي إلى الدمار والهلاك.

---

(١) انظر: النورسي، كليات رسائل النور، الكلمات، م س ص ٨٥٥-٨٥٦ وكل ما يأتي من حديث أو استنتاجات مرده إلى هذه الفقرة.

(٢) النورسي، كليات رسائل النور، المثنوي العربي النوري، م س، ص ١٦٩

الأثر تشجيع الأهواء والشهوات: والكل يعلم الأثر السلبي على البشرية وهي تحتكم إلى الشهوات والأهواء منطلقا ومصبا، مما ينزع عن الإنسان بشريته ويلحقه بالبهيمية الكافرة بمبدأ التكريم، وهو الملاحظ الآن مع المتغلب الوقتي، لا تخرج مسؤوليته الناتجة عن إيمانه وفلسفته لحياة عن صيانة مصالحه الخاصة بخراب العمران والتمرد على دستور الرحمن.

ج- الـ "مسؤولية" الحقائق الإيمانية:

تتضح المسؤولية المعرّفة الناتجة عن السير على نهج الحقائق الإيمانية التي تعتبر رسائل النور ترجمة وتفسيرا لها من خلال:

الاستناد إلى الحق: تستند مسؤولية الحقائق الإيمانية إلى الحق بدل القوة، مما يلزم عنه تفش للعدالة والمساواة المشعان للسلام.

الغاية الفضيلة: يؤكد الأستاذ النورسي على أن الهدف من هذا التصور هو الفضيلة المقصية للمنفعة، المورثة للمحبة والتقارب، والجالبة للسعادة والوائدة للعداوات.

قانونها التعاون: وذلك بدل التناحر والتدابر، وهو ما يورث الاتحاد والتساند إكسير حياة الجماعات والأمم.

الهدى لخدمة المجتمع: بدلا عن الأهواء والشهوات، حيث من شأنه الرقي بالإنسان والابتعاد به قدر الإمكان عن البهيمية للسمو به نحو الملائكية في عبودية خالصة لله عز وجل، يقول النورسي: "إن المؤمن يعطي لله كل شئ، ويحيل إليه كل أمر، وما يزال هكذا حتى يحيل فعله ونفسه إليه." [1]

الرابطة الدين: لا مكان في هذا التصور للعنصرية المقيتة، أمام اكتساح أخوة الإيمان في كنف السلام والاطمئنان.

يقول الأستاذ النورسي: "والآن! ندرك لِمَ أعرض العالم الإسلامي عن المدنية الحاضرة، ولم يقبلها، ولم يدخل المسلمون فيها بإرادتهم.

إنها لا تنفعهم، بل تضرهم. لأنها كبّلتهم بالأغلال، بل صارت سماً زعافاً للإنسانية بدلاً من أن تكون لها ترياقاً شافياً؛ إذ ألقت ثمانين بالمائة من البشرية في شقاء، لتعيش عشرة بالمائة منها في سعادة مزيفة. أما العشرة الباقية فهم حيارى بين هؤلاء وهؤلاء.

---

(١) النورسي، كليات رسائل النور، الكلمات، م س، ص ٥٤١

وتتجمع الأرباح التجارية بأيدي أقلية ظالمة، بينما السعادة الحقة، هي في إسعاد الجميع، أو في الأقل إن تصبح مبعث نجاة الأكثرية.

والقرآن الكريم النازل رحمة للعالمين لا يقبل إلا طرازاً من المدنية التي تمنح السعادة للجميع أو الأكثرية، بينما المدنية الحاضرة قد أطلقت الأهواء والنوازع من عقالها، فالهوى حر طليق طلاقة البهائم، بل أصبح يستبد، والشهوة تتحكم، حتى جعلتا الحاجات غير الضرورية في حكم الضرورية. وهكذا مُحيت راحة البشرية؛ إذ كان الإنسان في البداوة محتاجاً إلى أشياء أربعة، بينما، أفقرته المدنية الحاضرة الآن وجعلته في حاجة إلى مائة حاجة وحاجة. حتى لم يعد السعي الحلال كافياً لسد النفقات، فدفعت المدنية البشرية إلى ممارسة الخداع والانغماس في الحرام. ومن هنا فسدت أسس الأخلاق، إذ أحاطت المجتمع والبشرية بهالة من الهيبة ووضعت في يدها ثروة الناس فأصبح الفرد فقيراً وفاقداً للأخلاق"[1]

٥. من مظاهر المسؤولية في الحقائق الإيمانية

يؤكد الأستاذ النورسي من خلال رسائله أنه يروم تبرئة ذمته الشرعية بالاستجابة للإكراهات الواقعية المتمثلة أساسا عنده في إنقاذ الإيمان، الذي عبثت به المدنية الغربية أو الحضارة الغربية لقصور في المسلمين وعماء منهم، رغم اعترافه بأن جزءا من منتج هذه الحضارة أثر طبيعي لبعض الحق المتبقي من الإيمان الحق الذي يشترك فيه جميع الأنبياء والمرسلين، والمتناغم مع الفطرة الإنسانية، لاسيما في شقه المتعلق بعمارة الأرض وتسخير الكون رغم تباين الغايات نظرا لهذا اللبس، "ولئلا يُساء الفهمُ لابد أن ننبه: أن أوروبا اثنتان. إحداها: هي أوربا النافعة للبشرية، بما استفاضت من النصرانية الحقة، وأدّت خدماتٍ لحياة الإنسان الاجتماعية، بما توصلت إليه من صناعاتٍ وعلومٍ تخدم العدل والإنصاف، فلا أخاطب - في هذه المحاورة - هذا القسم من أوربا. وإنما أخاطب أوربا الثانية تلك التي تعفّنت بظلمات الفلسفة الطبيعية وفسدت بالمادية الجاسية، وحَسبِتْ سيئات الحضارة حسناتٍ لها، وتوهّمت مساوءها فضائل. فساقت البشرية إلى السفاهة وأردتها الضلالة والتعاسة.

---

(١) النورسي، كليات رسائل النور، الكلمات، م س، ص ٨٥٥-٨٥٦

ولقد خاطبتُ في تلك السياحة الروحية الشخصية المعنوية الأوربية بعد أن استثنيت محاسن الحضارة وفوائد العلوم النافعة، فوجّهت خطابي إلى تلك الشخصية التي أخذت بيدها الفلسفة المضرّة التافهة والحضارة الفاسدة السفيهة.. وخاطبتها قائلاً:

يا أوروبا الثانية! اعلمي جيداً أنك قد أخذت بيمينكِ الفلسفة المضلّة السقيمة، وبشمالك المدنية المضرّة السفيهة، ثم تدّعين أن سعادة الإنسان بهما. ألا شُلّت يداكِ، وبئست الهدية هديتكِ، ولتكن وبالاً عليكِ، وستكون."[١]

وقد استنفذ الأستاذ النورسي جهده في سبيل إظهار المسؤولية وتحميل كل إنسان نصيبه منها كما فعلها قبل قليل وهو يخاطب إنسان الفلسفة الغربية والإيمان المزيف العنصري والعصبي والفوضوي، باختلاف موقعه من الحياة وتشبعه بالحقائق الإيمانية من عدمه، كما يفعل الآن "إن الإنسان ثمرة شجرة الخلقة، فهو كالثمرة أبعد شيء عن البذرة، وأجمع لخصائص الكل، وله نظر عام إلى الجميع، ويضم جهة وحدة الكل، فهو مخلوق يحمل نواة القلب، ووجهه متوجه إلى الكثرة - من المخلوقات - والى الفناء، والى الدنيا، ولكن العبادة التي هي حبل الوصال، أو نقطة اتصال بين المبدأ والمنتهى، تصرف وجه الإنسان من الفناء إلى البقاء..."[٢]

وفي هذا المقام حري التطرق من خلال بعض نصوص النورسي إلى بعض مظاهر المسؤولية الحقة:

أ. الاغتراف من الأسماء الحسنى تخلقا وبثا

وقد اخترنا صفتي "المنعم" و"الكريم" لبعدهما وآثارهما الاجتماعية في الاقتداء بهما ولبعدهما النفسي في شد عضد المتشبع بالحقائق الإيمانية، والمستشعر للمسؤولية اللازمة والمتعدية إلى الآخر "تصور وأنت تستشعر عجزك وحاجتك الشديدة إلى مَن يساعدك ويعينك لإنقاذ مَن تحن عليهم وتشفق على أوضاعهم من الأقارب والفقراء، وحتى المخلوقات الضعيفة المحتاجة، إذا بأحدهم يبرز في الميدان، ويُحسن لأولئك ويتفضل عليهم ويسبغ عليهم نِعَمه بما تريده وترغبه.. فكم تطيب نفسك وكم ترتاح إلى اسمه "المنعم" و"الكريم" .. وكم تنبسط أساريرك وتنشرح من هذين الاسمين..."[٣]

(١) النورسي، كليات رسائل النور، اللمعات، ص ١٧٦-١٧٧

(٢) النورسي، كليات رسائل النور، الكلمات، ص ٤١٨

(٣) النورسي، كليات رسائل النور، الكلمات، ص ٧٦٧

ب. مجابهة التحديات والصبر على التضييق

في كثير من المواضع يدندن الأستاذ النورسي على ضرورة إثبات الحقائق الإيمانية على حد تعبير أستاذنا الدكتور عمار جيدل، والتي تستدعي المرافعة ومجابهة الأخطار التي تهددها، والشرور التي تعترض المنتسبين إليها "كما كنت أتوقع أن تثار أسئلة في مسائل كبيرة كالجبال الشوامخ أمثال: "ما درجة خدمة رسائل النور وطلابها ضد الشيوعية التي تحولت إلى حركة فوضوية في وطننا؟ وكيف يمكن صيانة هذا الوطن المبارك وحفظه من هذا السيل الجارف المخيف؟"... كنت أنتظر وأتوقع هذا، فإذا بي أفاجأ بمسائل تافهة لا تزن جناح ذبابة، ولا تتجاوز مسائل جزئية لا تستلزم مسؤولية، نابعة من أحقاد شخصية وافتراءات مقصودة تجعل من الحبة قبة..."[١]، ويقول مبرزا أهمية الصبر على مصادرة الحرية والعمل بمسؤولية على إنقاذ الإيمان "أيها الحكام المحترمون! أنتم أعلم بالجواب، لكن اسألوا المدعي العام المشتكي مرة أخرى، إن كان يستطيع أن يجيب بالنفي! هل يمكن الوقوف في وجه تردي الأخلاق وزوال العفة وضياع النسب وتجارة الأعراض والزنا والقتل بالقوانين الجزائية وحدها، إذا لم تشرح أوامر الله وحكمة القرآن العظيم للشباب ويعلَّموها، وإذا منع ذلك بحجة أن الدعاية إليها ممنوعة؟ بأي شيء يمكن صد التخريب الخفي والعلني، والمعدي والخبيث، لفكر فتاك كالشيوعية التي تهدد الدنيا كلها؟."[٢]

ج. الشهامة

وهي الجرأة والقدرة والباعث على تحمل المسؤولية وعدم المبالاة بالمخلين بها في توجيه ذكي من أستاذنا النورسي حين يعتبر الإمعية مخالفة للشهامة الإيمانية وتحمل مسؤولية الخلافة، حيث يقول: "بل قد أصبح الواحد بسبب هذا اليأس يتخذ من فتور الآخرين وعدم مبالاتهم ذريعة للتملص من المسؤولية، ويخلد إلى الكسل قائلاً: "مالي وللناس، فكل الناس خائرون مثلي "فيتخلى عن الشهامة الإيمانية ويترك العمل الجاد للإسلام."[٣]

---

(١) النورسي، كليات رسائل النور، الشعاعات، م س، ص ٤٤٦

(٢) النورسي، كليات رسائل النور، سيرة ذاتية، ص ٤٥٣

(٣) النورسي، كليات رسائل النور، صيقل الإسلام، ص ٥٠٥

هـ. الوقار والاحترام

وهـذا لا يتـأتى إلا باستـشعار مـسؤولية الخلافـة فـي الكـون، والتـصرف مـن مقـام مسؤولية التبليغ عن هذا الدين، مسؤولية تختلف تنزلاتها من مقام إلى آخر، من البيت والأسرة إلى المجتمع المسلم وانتهاء بالمجتمع غير المسلم، "إن الموظف الكبير له شخصية خاصة به أثناء إشغاله مهمته من موقعه الرفيع ومقام وظيفته. هذا المقام يتطلب وقاراً وأطوارا ليصون كرامة موقعه وعزة مقام المسؤولية. فإظهار التواضع لكل زائر، فيه تذلل وتهوين من شأن المقام. ولكن هذا الشخص نفسه يملك شخصية أخرى خاصة به في بيته وبين أهله، وذلك يتطلب منه أخلاقا مباينة لما في الوظيفة، بحيث كلما تواضع أكثر كان أفضل وأجمل، في الوقت الذي إذا أبدى شيئاً من الوقار يعدّ ذلك تكبراً منه."[١]

و. الشمولية على الأفراد والانسحاب على المجتمعات

وهذا الشمول كما ينسحب على عدم الاقتصار على الذات وضرورة استحضار المجتمع، وكما تستحضر الأجناس "ذكرانا وإناثا" تنسحب على الأجناس والأعراق، وقبلها على جميع طبقات المجتمع باختلاف مستويات إدراكهم وتحصيلهم "زد على ذلك أن الخدمة القرآنية التي اجتمعنا عليها ترفض "أنا" وتطلب "نحن"، فلا تقولوا: أنا! بل قولوا: نحن. ألا فليعلم أولئك الحاملون لغرور علمي قوي، أنهم لا يكونون طلاباً لي بل يكونون طلاباً وتلاميذ للقرآن الحكيم، وأنا لا أكون إلاّ زميل دراسة معهم. بل حتى لو فرض فرضاً محالاً أنني أدّعي الأستاذية، ولكن بما أننا قد وجدنا وسيلة لإنقاذ طبقات أهل الإيمان كافة من العوام إلى الخواص من الشبهات والأوهام التي يتعرضون لها الآن، فعلى أولئك العلماء أن يجدوا وسيلة أيسر منها أو يلتزموا هذه الوسيلة ويقوموا بتدريسها وتعهدها."[٢]

٦. خاتمة

وفي الختام يمكن حوصلة ما سبق في أن مولانا بديع الزمان سعيد النورسي قد تلمس مشاكل العصر التي لا يخلو منها عصر، والذي دارت فيه الدائرة على دولة المسلمين لعوامل عديدة، فكان أن رفع لواء "إنقاذ الإيمان" من خلال رسائل النور، بعد

---

(١) النورسي، كليات رسائل النور، المكتوبات، م س، ص ٢٩٣

(٢) النورسي، كليات رسائل النور، المكتوبات، ص ٢٤٤

أن استشعر أزمة في علاقة المؤمنين بإيمانهم داخل الدائرة الإسلامية، نتيجة غياب وتغييب الوعي بالمفهوم الحقيقي للإيمان كما رسمته ووضحته الرسالة الخاتمة والوحي الخالد، لتحل محله أو بالأحرى تعوضه بإيمان لا يرقى إلى مستوى الرسالة والوحي الخاتم سواء عبر إصابته بالوهم لوهن المسلمين أو محاولة استبداله بإيمان منطق القوة والشهوة والمنفعة والصراع، ومدار الأزمة غياب وتغييب مفهوم المسؤولية، وملجئات الإنقاذ استحضار واستشعار قيمتها ولزوميتها للحقائق الإيمانية المورثة لمنطق الحق والعدل والمساواة والتعاون والسلم مهما كانت الظروف والسياقات لأن الخلافة في الأرض وعمارتها وتحقيق العبودية لله عز وجل لا تسقط بالتقادم ولا بالتكالب ولا بضعف ووهن المسلمين.

قائمة المصادر والمراجع

القرآن الكريم

النورسي، كليات رسائل النور، سيرة ذاتية، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، ط٠٣، شركة سوزلر للنشر، القاهرة، مصر، ١٤٢١هـ-٢٠٠٠م.

النورسي، كليات رسائل النور، الشعاعات، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، ط٠٣، شركة سوزلر للنشر، القاهرة، مصر، ١٤٢١هـ-٢٠٠٠م.

النورسي، كليات رسائل النور، صيقل الإسلام، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، ط٠٣، شركة سوزلر للنشر، القاهرة، مصر، ١٤٢١هـ-٢٠٠٠م.

النورسي، بديع الزمان سعيد، كليات رسائل النور، الكلمات، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، ط٠٣، شركة سوزلر للنشر، القاهرة، مصر، ١٤٢١هـ-٢٠٠٠م.

النورسي، كليات رسائل النور، المثنوي العربي النوري، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، ط٠٣، شركة سوزلر للنشر، القاهرة، مصر، ١٤٢١هـ-٢٠٠٠م.

النورسي، كليات رسائل النور، المكتوبات، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، ط٠٣، شركة سوزلر للنشر، القاهرة، مصر، ١٤٢١هـ-٢٠٠٠م.

النورسي، كليات رسائل النور، الملاحق، ملحق أميرداغ، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، ط٠٣، شركة سوزلر للنشر، القاهرة، مصر، ١٤٢١هـ-٢٠٠٠م

النورسي، كليات رسائل النور، ملحق قسطموني، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، ط٠٣، شركة سوزلر للنشر، القاهرة، مصر، ١٤٢١هـ-٢٠٠٠م.

النورسي، كليات رسائل النور، اللمعات، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، ط٠٣، شركة سوزلر للنشر، القاهرة، مصر، ١٤٢١هـ-٢٠٠٠م.

جميل صليبا، المعجم الفلسفيّ، دار الكتاب اللبناني.د.ت

جيدل عمار، بديع الزمان النورسي وإثبات الحقائق الإيمانية _المنهج والتطبيق_، ط ٠١، شركة نسل للطباعة والنشر والتوزيع، إسطنبول تركيا، ١٤٢٢-٢٠٠١.